

الأبطال توماس كارلايل

بقتام
الأستاذ على أدهم

ويحتفظ بتلك الثقة ، وقد ظل قرابة ربع قرن وهو يشغل مكانة مرموقة بين معاصريه .

وكان رجال المدارس الفكرية المختلفة والأحزاب المتباينة يستمعون إليه في احترام وحاسة ، أو في شك ومخالفة ، ولكن بإصغاء واهتمام .

وكان ما يملكه « كارلايل » ويحمل عليه تظل آراؤه فيه تنتقل من فم إلى فم ، وتردد في الأندية المختلفة ، فيقره بعض الناس على آرائه ، ويتلقاها بعضهم بالرفض والاستنكار ، أو بالسخرية والضحك ، ولكن الاتجاهات التي كان يوافق عليها ، ويشيد بها كان يكفي ذلك ليكون دليلاً على صحتها ، وباعثاً على تأييدها .

وكان جميع الناس يعلمون أنه وصل إلى تكوين معتقداته واعتناق أفكاره ، بعد أن خاض لجزء التجربة الشخصية ، وبذل جهوداً فكرية ، وأنه علم نفسه قبل أن يتطلع إلى تعليم غيره ، وأنه مهما كان التقدير الذي تلقاه آراؤه ، وتظفر به رسالته ؛ فإن نزاهته وإخلاصه وصراحته فوق متناول الشكر ، كما أن له من مؤلفاته العظيمة ما يدعم مكانته ويبعد صوته وشهرته .

« توماس كارلايل » (١٧٩٥ - ١٨٨١) أحد الكتاب المبرزين في تاريخ الأدب العالمي ، وقد حفل الأدب البريطاني في القرن التاسع عشر بطائفة من كبار الكتاب والنقاد والشعراء والمؤرخين ، ولكن « كارلايل » كان مع ذلك أجملهم شأنًا وأبعدهم شهرة وأسماهم مكانة . وقد كان « كارلايل » فذاً في أسلوبه وطريقة تفكيره ، وفي أخلاقه وسمات شخصيته ، غريباً في أطواره وحالاته ، ولم تكن هذه الغرابة من النوع المصطنع ، ليسترعى النظر ويجتلب الشهرة ، وإنما كان سببها فرط أصالته ، وطرافة شخصيته ، ولم يكن « كارلايل » كاتباً كبيراً فحسب ، وإنما كان كذلك رجلاً عظيماً ، عظيماً في شخصيته الواضحة المعالم ، الخالصة الجوهر . وفي إخلاصه وصراحته ، وفي جلده العجيب على البحث والتحرى والتحقيق ، ومثابرته الدائمة على التأليف والتفكير ، دون أن يعبأ بالشهرة أو بالمال ، وقد ظل طوال حياته يصدع برأيه ، ويدلي بحكمته ، دون أن يبالي أوقعت في النفوس موقع القبول والاستحسان ، أم موقع الضيق والاستهجان ؟ ولم يكن إعجاب الجمهور به أو تقديره لأدبه وشخصيته ليحمله على أن يقول غير ما يعتقد ؛ ليستبقى هذا الإعجاب ،

وقد أخذت على «كارلايل» عيوب في أسلوبه وتفكيره ، وأحصيت عليه ذنوب في سلوكه الشخصي وبعض مواقفه السياسية والاجتماعية ، وبعض هذه العيوب والذنوب حقيقى ، لا يستطيع الممارسة فيها أشد الناس تحمساً له وأقواهم إعجاباً به ، ولكن «كارلايل» برغم ذلك كله كاتب يلمس القلب ويثير الخيال ويهز النفس ويوحى السمو ، ويحثنا على العمل لخير الإنسانية ويزيدنا كراهة للملق والرياء والنفاق ، وعلاوة على ما فى أدبه من النضج الفنى والتفوق الأدبى ، فإنه كما قال عنه أستاذه العظيم «جيتى» : «قوة أخلاقية» ، ولم يكن «كارلايل» يؤمن بالمساواة ، لأنه كان كلفاً بالعظمة والبطولة ، ميالاً إلى التفوق والامتياز ، والناس فى نظره غير متساوين ، لأن بعضهم له مواهب عظيمة وقدرات ممتازة ، وبعضهم مجردون من المواهب عارون من الفضائل ، وكيف يستوى النابغة العبرى والقدم الغبي ؟ وقد آتهم فى أواخر أيامه وشيخوخته بالرجعية وعبادة القوة والتنكر للديمقراطية ولكن الديمقراطية التى كرهها «كارلايل» كانت الديمقراطية الزائفة التى تعبت بالقيم وتنحى الممتازين لتوسع المجال للأدعياء والدجالين ، أما ميله إلى القوة فلأنه كان يرى اقترانها بالحق ولأن الضعف فى رأيه كان يستتبع الكثير من العيوب والنقائص ، وربما يكون «كارلايل» قد اشتط فى تحامله على الديمقراطية وتشيعه للقوة ، ولكن باعث هذا مع ذلك لم يكن غلظة فى نفسه وقسوة فى طباعه فقد كان «كارلايل» رجلاً كبير القلب قوى العطف شديد الرحمة ، ولكنه محب للسمو والتحليق ، معجب بالعظمة والبطولة والعبرية ، ولكن فى إباء وشمم ، فلم يبتذل كرامته فى طلب القوة والنفوذ ، وأبى أن يندمج فى زمرة السائرين فى ركاب الأقوياء .

وقد أثر «كارلايل» فى معاصريه بأدبه وخلقه ، قال عنه الأستاذ «سيمونز» فى كتابه القيم عن حياة «كارلايل» وأفكاره «كان أسلوبه عميق الأثر فى

تغيير صورة الأدب فى القرن التاسع عشر ، وكما قضى «وردزورث» و«كولردج» على الأسلوب الكلاسيكى فى قرض الشعر فكذا قضى «كارلايل» على الأسلوب الكلاسيكى فى النثر ، وقد يسر للمؤرخين سبيل الحرية الجديدة والمرونة وأوحى إلى الروائيين أنهم يستطيعون أن يتناولوا المادة المعقدة الجادة بقوة الاستنارة المضيئة التى تسمو بها ، وقد ألقى ظله بوجه خاص على «ديكنز» و«ميرديث» و«براوننج» و«راسكن» ، ولا يكاد يوجد كاتب واحد من كتاب النثر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لم يتأثر بأسلوب «كارلايل» وقال عنه الكاتب المؤرخ الأمريكى «روسكوثير» «الانتقال إلى «كارلايل» بعد قراءة معظم المؤرخين يشبه الخروج من متحف موميات إلى جماعة من الأحياء يتنفسون» وقد أعقب التقدير العظيم الذى أصابه فى حياته حملة شديدة عليه بعد مماته ، وربما كان ذلك فى طبائع الأشياء . على أن تقلب الموازين الانتقادية وتغير الأذواق والأهواء وتبدل الأساليب الأدبية لم يستطع أن يسلب حكيم شلسى مكانته أو يجرده من عبقريته ، فكانته بين الكتاب والمؤرخين لا تزال فى القمة ، وذكره لا تزال ناضرة فى النفوس ، وليس أدل على ذلك من الكتب المتتابعة والفصول المتوالية التى ما تنفك تتناول نواحي أدبه وإنتاجه الغزير ، وجوانب شخصيته المتعددة .

وحياة «كارلايل» مثل حياة أكثر الكتاب والمؤلفين لم تتخللها أحداث خارجية عظيمة ، فهى تكاد تكون مقصورة على مغامراته الفكرية والمؤلفات التى استأثرت بجهده واستغرقت وقته ، وحياته الزوجية وعلاقاته بأصدقائه القليلين المختارين مثل «ارفينج» و«ستيوارت مل» و«براوننج» وغيرهم من الكتاب والمفكرين .

وقد ولد «كارلايل» فى «إكليفيكان» إحدى قرى مقاطعة «دمفريز شاير» فى إقليم «اناندال» يوم

٤ من ديسمبر سنة ١٧٩٥ أى قبل أن يبدأ « نابليون بوناپرت » غزواته بأربعة أشهر وقبل أن يموت شاعر « أسكتلندة » العظيم « روبرت بيرنز » بسبعة أشهر ، وكان أبوه « جيمس كارلايل » يحترف البناء ، وأصبح بعد ذلك مزارعاً ، وكان رجلاً قوى البنية ، حمى الأنف ، شديد التدين ، قوى التعلق بمذهب « كالفن » ، وكان من سلالة قوم عرفوا بصلابة الأخلاق وحدة اللسان ، وبأنهم محاربون رهييون لاثنتين قناتهم لغامز ، ومحدثنا ابنه « توماس » عنه بأنه على خشونة مظهره كان طيب القلب سمح النفس ، ويشبه لنا بالبئر السلسلة العذبة حولها الصخور الصم . وكانت « مارغريت إيتلين » زوجته الثانية ووالدة « توماس كارلايل » امرأة ورعة تقية دمثة الأخلاق شديدة الاهتمام بتوفير أسباب الراحة لنجلها « توماس » وكانت تحرص على أن يصير حيناً يكبر قسيساً من أتباع الكنيسة المشيخية ، وبرغم أنه لم يحقق رغبته فقد ظلت العلاقات بينهما مرضية ، وقد تعلمت الكتابة لتتمكن من قراءة رسائله والكتابة إليه .

وقد أرسل إلى مدرسة القرية فى الخامسة من عمره ، وبعد التحاقه بالمدرسة بسنتين ورد عنه تقرير يقول : إنه يجيد الإنجليزية ، ولما كان ناظر المدرسة لا يعرف اللغة اللاتينية ، فقد تلقى « توماس » دروساً بها على قسيس « اكليفكان » وابنه ، وكان هذا الابن من طلبة جامعة « أدنبرة » وتقدم فى تعليمه تقدماً سريعاً ، وفى سنة ١٨٠٥ دخل مدرسة « أنان » الأولية تمهيداً للتحاقه بالجامعة وانتظامه فى سلك الكهنوت بعد ذلك ، وقد خالف أبوه فى ذلك نصيحة أحد جيرانه الذى قال له « إن الأولاد الذين يتعلمون يحرقون والديهم الجاهلين حيناً يكبرون » وقد ذكر له أبوه هذه القصة بعد أن كبر وأتبعها بقوله « نحمد الله لأنك لم تفعل ذلك » وعلق « كارلايل » على ذلك بقوله عن أبيه

« حدها اليقين النبيل على أن يدفع بى إلى عالم لم يسمح له قط بزيارته » .

وقضى « كارلايل » فى « أنان » سنتين بائستين ، فقد كان غلاماً حياً حساساً فاضطهده أقرانه الطلبة فى بادىء الأمر وكانت والدته قد استعهدت منه ألا يدفع عن نفسه هجوماً مما عرضه للكثير من الأذى حتى عيل صبره ، ولم يعد الاحتمال فى طوقه ، فرد رداً عنيفاً على أحد مهاجميه ، وهزم فى المعركة ، ولكن هذه الحادثة مع ذلك وضعت حداً لاضطهاده وإلحاق الأذى به ، وبعد أن أمضى سنتين فى « أنان » عرف اللاتينية والفرنسية ، وألم بمبادئ الجبر والهندسة ، وبدأ اهتمامه بمطالعة التاريخ ، فقد أعجبه فى هذه الفترة كتاب المؤرخ « روبرتسن » عن « شارل الخامس » وقال عنه « إنه فتح له عوالم جديدة من المعرفة ، ومشاهد من كل ناحية » .

وفى الرابعة عشرة من عمره التحق بجامعة « أدنبرة » وظل بها حتى سنة ١٨١٤ ولما لم يكن راغباً فى أن يصبح من رجال الكنيسة كما أراد والداه فقد اشتغل ناظراً لإحدى المدارس رغم كراهته لمهنة التعليم . ولما أراد أن يستقل بحمل أعباء نفسه حتى تتاح له فرصة اختيار العمل الذى يروقه ويرضى مواهبه ، وقام بالتعليم فى « أنان » و « كيركالدى » ، وعرف فى تلك الأيام « ادوارد ارفنج » ، ونمت بينهما صداقة كان لها تأثير كبير فى حياة « كارلايل » وكان « ارفنج » يعيره الكتب التى كان « كارلايل » يلتمها فى سرعة مذهلة ، وكانا يبحثان معا ويتبادلان الرأى فى المشكلات الروحية التى كانت تشغل بال « كارلايل » فى هذه المرحلة من مراحل حياته ، والسنوات الأربع التى قضها « كارلايل » فى « أنان » و « كيركالدى » كانت سنوات دراسة مستمرة وجهد متواصل ، وكان من أهم ما قرأه « كارلايل » فى خلالها كتاب « جيون »

عن اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ،
وقد ترك هذا الكتاب العظيم في نفسه أثراً باقياً ، قال
عنه « لا يستطيع الإنسان أن ينسى هذا الكتاب إلا إذا
كان الإنسان نفسه جديراً بأن ينسى ، وقراءة هذا
الكتاب تكون حقبة في حياة الإنسان العقلية » .

وفي سنة ١٨١٨ ترك الصديقان « كير كالدي »
وأقاما في « أدنبرة » وكان في تلك الفترة يجتاز أزمة
روحية حادة ، فنبذه للمسيحية المحافظة تركه يضرب
في بيداء الشكوك ويوجه إلى نفسه أسئلة لا يجد في نفسه
القدرة على الإجابة عنها ، وبدأ له أنه ليس هناك مهرب
من التفسير المادى الجاف للكون وإن كانت نفسه تنفر
نفوراً شديداً من قبوله ، وفكر في أن يصير مهندساً ،
وبدأ يدرس علم المعادن ، ولكنه سرعان ما ضاق به .
ولو أن محاولة هذه الدراسة كان لها تأثير هام في حياته
لأنها جعلته يشرع في دراسة اللغة الألمانية ، وحاول بعد
ذلك دراسة القانون ولكنه لم يلبث أن أعرض عنها لأنها
لا تقدم عوضاً عن المشاق التي يتجشمها الإنسان سوى
المال ، وكان يزيد حالته سوءاً ما كان يعانيه من علة
عسر الهضم التي لزمته طوال حياته ، وكان مسلاته
الوحيدة في تلك الأيام القاسية النكدة عطف أسرته التي
كانت لا تعرف مشكلاته ، ولكنها مع ذلك تهففيه
الود وتخصه بالرعاية ، وكان والده قد أصبح حينذاك
يملك مزرعة في مينهيل ، وكانت زيارات « كارلايل »
لتلك المزرعة من الحين إلى الحين تطلعه من إسار اليأس
الذي استولى عليه ، وتريجحه من أثقال الهموم التي
يعانيها ، وكان الدخل القليل الذي تدره عليه مهنة
التدريس وكتابة بعض الفصول في موسوعة « أدنبرة »
التي كان يشرف على إخراجها « السير دافيد بروستر »
لا يكاد يفي بحاجاته ويرغمه على التزام أقصى حدود
الاقتصاد . وقد وصف لنا « كارلايل » اجتيازه تلك
الحنة النفسية وخلاصه من أزمته الروحية في ساعة من

ساعات التجلي المعهودة في حياة كبار المتصوفين وذلك
في كتابه المشهور السمي « سارتر ريزارتس » أو
« فلسفة الملابس » وهو ترجمة ذاتية لحياته وخواطره ،
فهو يقول في ختام الفصل الذي جعل عنوانه « لا
الأبدية »^(١) في ذات يوم وتلك حالي وهذا شعوري
كنت أجوب شوارع « باريس » في هجرة مسجورة
الرمضاء إذ خطر ببالي خاطر على حين غرة ، فأنشأت
أسائل نفسي : « ما هذا الخوف الذي يقض وسادك ؟
وما هذا الجبن الذي ينخب فؤادك ؟ أى شيء تخشى
أها الأحمق ؟ وما عسى أن يكون شر ما يترقبك في
هذا الوجود ؟ أليس هو الموت وآلام الجحيم ، وكل
ما يستطيع إنسان أو شيطان أن يزل بك من مكروه ؟
وأى شيء هذا ؟ أو لم توت قلباً فيه صبر وجلد وشجاعة
وشيم ؟ أو ليس في استطاعتك أن تصبر على البلوى وإن
عظمت ، وأن تحتمل المكاره وإن فدحت ؟ أو ليس
في مقدورك وأنت من أبناء الحرية أن تدوس الجحيم
بقدميك ، وناره ترعى بن جنبيك ؟ ليأت القضاء بما
قضى ، فهأنذا ذاهب متأهب لتلقيه متحفز لتحديه !
وبينا هذه الخواطر تدور في خلدي شعرت كأن
صيباً من النار قد غمر كياني ، وإذا بي قد نفضت عني
إلى الأبد مقيت الخوف ، ورحت أشعر بقوة عجيبة ،
بقوة مجهولة كأني روح مطلق بل كأني إله قدير ، ومن
ذلك الحين تغير إحساسي بالشقاء عن سالف عهده ،
فاستبدلت بخوف الرعديد الجبان ، وحزن المعول الأنان
غضباً مقدساً نارياً وإباء أشم حمياً ! وفي تلك اللحظة

(١) اعتمدت في ترجمة هذه الفقرات المنقولة من كتاب
« سارتر ريزارتس » على ترجمة الأديب الكبير الأستاذ « طه السباعي »
لهذا الكتاب بعد مراجعتها على الأصل ، و ترجمة الأستاذ « طه السباعي »
ليست ترجمة حرفية فهي لم تخل من التصرف المقبول ، والواقع أن
أسلوب كارلايل العجيب وبخاسة في هذا الكتاب الذي عبر فيه عن
موقفه من الحياة وذكر فيه خلاصة فلسفته لا يمكن ناقله إلى أى لغة
من اللغات من التزام الأمانة التامة والتقييد بحرفية النص ، وما يزيد
قيمة ترجمة الأستاذ « طه السباعي » لهذا الكتاب اطلاعه الواسع على
أدب « كارلايل » ومناحي تفكيره .

كان ميلادى الروحانى ، أو قل تعميدى النارى ، ومنذ تلك اللحظة بدأت أشعر بأنى أصبحت رجلاً .

وقد حدث هذا التحول الذى وصفه لنا «كارلايل» فى كتاب فلسفة الملابس معزواً إلى الأستاذ «تيو فلسدروخ» فى أحد أيام شهر يونيو ١٨٢١ وهو يجتاز طريق ليث فى أدنبرة بعد أن ظل ثلاثة أسابيع مسهد الجفن مضطرب الخاطر نائر النفس ، وكان هذا الحادث نقطة تحول فى حياة «كارلايل» ، وأرجح أن دراسته للأدب الألمانى وعنايته الخاصة بأدب «جيتى» كان لها أثر فى تقريب هذا الخلاص الروحى.

وفى شهر يونيو هذا وقعت حادثة أخرى ساعدت «كارلايل» على أن يثوب إليه رشده ويعاوده اترانه ، فقد كان «لارفنج» تلميذة لامعة الذكاء تدعى «جين بيلي ولش» ، وكانت حينذاك تقيم مع والدتها فى «هاندنجتن» ، ونشأت عاطفة حب بين الأستاذ وتلميذته ولكن «ارفنج» كان قد ارتبط بالمرأة التى أصبحت فيما بعد زوجته ، وفضلاً عن ذلك فإنه كان يتأهب للرحيل إلى «لندن» ، ورأى أن «كارلايل» يمكن أن يقوم بالإشراف على دراسة الآنسة «جين ولش» وقام «كارلايل» و «ارفنج» بزيارة «هاندنجتن» ، وهناك بدأت أواصر الصداقة بين «كارلايل» و «جين ولش» ، وقد انتهت هذه الصداقة بالزواج فى سنة ١٨٢٦ .

وبعد وصول «ارفنج» إلى «لندن» استشارته السيدة «بولر» فى اختيار مدرس لولديها ، فزكى لها «كارلايل» وبعد مفاوضات قبل «كارلايل» فى يناير سنة ١٨٢٢ أن يقوم بالإشراف على دراسة الصبيين ، وظل معهما سنتين ، وكان فى أثناء ذلك مقبلاً على دراسة الأدب الألمانى ، وقد أثمرت هذه الدراسة مؤلفه القيم عن حياة الشاعر «شيلر» وترجمته لرواية «وليام ميستر» التى ألفها «جيتى» ، واتفق مع بعض

الناشرين على ترجمة أشياء أخرى من الأدب الألمانى ، وقد وفق فى كتابه عن «شيلر» وفى ترجمته لرواية «وليام مايستر» واسترعى نظر «جيتى» الذى أعجب بكتابه عن «شيلر» وأرسل إليه رسالة مشجعة تنطوى على حسن التقدير وجميل الثناء ، وبدأ «كارلايل» يثق بملكاته الأدبية ، ورأى أنه يستطيع أن يشق طريقه إلى جانب الكتاب البارزين والنقاد المعروفين ، وترك التدريس وعاد إلى مزرعة أبيه فى «هودام هل» ليتابع ترجماته من الأدب ويفكر فى خطط لمستقبله الأدبى .

وفى سنة ١٨٢٦ تزوج الآنسة «جين ولش» وأقاما معاً فى «أدنبرة» ولكن بعد أن قضيا بها سنتين مل «كارلايل» ضجة المدن ، ووجد أنه فى حاجة إلى مكان هادى ليفرغ للكتابة والتأليف ، فانتقل مع زوجته إلى كريجينباتوك حيث كانت تملك زوجته مزرعة منعزلة بعيدة عن الأماكن المأهولة ، وقد عرف «كارلايل» فى أثناء إقامته «أدنبرة» الناقد «جيفرى» وكان حينذاك رئيس تحرير مجلة «أدنبرة» فأشرك «كارلايل» فى تحرير المجلة ، وخلال السنوات الست التى قضاها «كارلايل» فى «كريجينباتوك» كتب فصولاً أدبية لمجلة «أدنبرة» ومجلة «فريزر» و «فورن ريفيو» ، وقد جمعت هذه الفصول فى الأجزاء السبعة المسماة «فصول متنوعة» . وقد جعلته هذه الفصول حجة فى تفسير الأدب الألمانى للإنجليز ، وفى «كريجينباتوك» كتب «كارلايل» كتاب فلسفة الملابس واعزم الكتابة عن تاريخ الثورة الفرنسية ، ولكن برغم أن شهرته كانت قد أخذت تتعالى إلا أنه كان لا يزال يجد صعوبة فى استرعاء الأسماع والحصول على المثوبة المادية التى تسد خلته وتفى بحاجته ، وفى سنة ١٨٣٤ عقد العزم على الذهاب إلى «لندن» والإقامة بها ليشق طريقه ، ويعمل على توطيد مكانته الأدبية ، وقد حثته على ذلك زوجته ، وأقام بمنزل فى «شين رو»

ما نراه في هذه الدنيا قائماً مكتملاً هو بخلافه النتيجة
المادية الخارجية والتحقيق العملي والتجسيم للأفكار التي
استقرت في نفوس عظماء الرجال الذين أرسلوا إلى هذه
الدنيا ، ويمكن أن يقال بحق : إن روح تاريخ العالم برمته
هو تاريخ هؤلاء الرجال .

وهؤلاء الرجال العظماء سواء كانوا شعراء أو
مصلحين أو كتاباً أو رجال أعمال أو قساوسة ورجال
دين فإنهم جميعاً يحملون بين جنوبهم هذا السر الغامض
سر العظمة والبطولة الذي تنزل عليهم ، وأودع في
قلوبهم . فليسوا هم من مخلوقات الظروف وصنع
الحوادث ، وإنما هم الذين يخلقون الظروف ويصنعون
الحوادث ويملون إرادتهم ويحققون مثلهم العليا ،
ويقول عنهم « كارلايل » : « مثل هذا الرجل هو مائدعوه
الرجل الأصيل الطريف ، وهو رسول موفد من
المجهول اللانهائي يحمل إلينا الأخبار والبشائر ، يحملها
إلينا مباشرة من الحقيقة الداخلية الباطنة للأشياء ، وهو
يعيش متصلاً اتصالاً دائماً بهذه الحقيقة ، ولا تستطيع
الاشاعات الباطلة والتخرصات الكاذبة أن تحجبها عنه ،
إنه مقبل من قلب الوجود النابض وهو جزء من الحقائق
الأولية للأشياء » .

ومثل هذا الرجل العظيم أو البطل لا يستطيع جهل
العصر الذي يظهر فيه ونقائصه وعيوبه أن تشوه رويته
الأصيلة أو تمحو نضارتها ، وهو قد وصل إلى حقيقة
مجدية تهب القوة والحياة ، ومن أجل هذه الحقيقة
يلتفت إليه وينزل على رأيه ويؤخذ بقوله ، وهو قوى
بها ، وما كشفه هذا الرجل خالد على الزمن وتأثيره
باق لا يزول ، وقد أكد « كارلايل » هذه الفكرة في
كتابه عن رسائل « كرومويل » وخطبه ، الذي قرغ
لتأليفه بعد انتهائه من إلقاء محاضراته حيث قال « أعمال
الرجل العظيم باقية لا ينالها البلى ، ولا تخلق جدتها ، ولو
دفنت تحت أكوام من الأسمدة وتلال من النفايات

بضاحية شلسي . وقد ظل يقيم بهذا المنزل طوال السنوات
الباقية من حياته وأتم كتابه عن الثورة الفرنسية في أوائل
سنة ١٨٣٧ ، وكتب في خلال ذلك بعض الفصول
الأدبية للمجلات ، ولكنه مع ذلك كان لا يزال يعاني
الضيق المالي وقلة الدخل ، واقترحت عليه الأنسة
« هاريت مارتينو » إلقاء سلسلة من المحاضرات وجمعت
الاشتراكات لها وبدأها « كارلايل » بإلقاء محاضراته عن
الأدب الألماني في سنة ١٨٣٧ ، ونجحت المحاضرات
نجاحاً باهراً ، وأتبعها « كارلايل » بإلقاء ثلاث سلاسل
أخرى من المحاضرات عن تاريخ الإنسان الروحي من
أقدم العصور حتى عصره في سنة ١٨٣٨ ومحاضرات
عن الثورة الفرنسية في سنة ١٨٣٩ وختمها بمحاضراته
عن الأبطال وعبادة البطولة في سنة ١٨٤٠ وقد ظفرت
هذه المحاضرات بالتقدير الكبير عند إلقاءها وقد ظهرت
مطبوعة في سنة ١٨٤١ في كتاب « الأبطال وعبادة
البطولة والبطل في التاريخ » وهو ليس من كتبه
الضخمة الحافلة التي أمضى السنوات الطويلة في إعدادها
مثل كتابه عن الثورة الفرنسية أو كتابه عن رسائل
« كرومويل » وخطبه أو كتابه عن تاريخ « فردريك
الثاني البروسي » ولكنه مع ذلك المدخل إلى فلسفته
التاريخية والاجتماعية والسياسية ، وقد حاول « كارلايل »
في هذه المحاضرات بسط الكثير من أفكاره الرئيسية ،
وبخاصة الأفكار التي ذكرها في صورة رمزية شعرية
في كتاب الملابس ، كما كشف فيها عن تصوره
للتاريخ ومنهجه في استقراء حوادثه وتفهم ثوراته
وانقلاباته ، وقد استهل المحاضرة الأولى بقوله الذي
أوضح اتجاه المحاضرات من بادىء أمرها « التاريخ
العام أو تاريخ ما أبجزه الإنسان هو في صميمه تاريخ
عظماء الرجال الذين عملوا في هذه الدنيا ، وقد كان
هؤلاء العظماء هم قادة الناس ، وهم المبتدعون والأسي
والقذوات ، بل هم بالمعنى الواسع مبتكرو كل
ما حاول السواد الأعظم من الناس أن يعملوه ، وكل

والمقاذر ، وما استودع في الإنسان وحياته من البطولة ومن الضوء الخالد يضاف إلى الآباد في دقة متناهية واستيفاء تام ، ويبقى على الدوام جزءاً مقدساً جديداً من حصيلة الأشياء .

ويردد « كارلايل » هذا الرأي تأييداً لما سبق أن قاله في كتابه عن الأبطال ، فقد قال في المحاضرة الأولى « ليس هناك شعور في قلب الإنسان أنبل من هذا الشعور بالإعجاب بمن هو أسمى منه وأجل شأنًا ، وهذا الشعور حتى هذه الساعة وحتى إلى جميع الساعات القادمة هو التأثير الحي في حياة الإنسان ، والدين في اعتقادي يقوم على هذا الشعور ، أليس الولاء الصادق وهو روح حياة المجتمعات منبثقاً من عبادة البطولة والإعجاب المستسلم الخاضع بالرجل العظيم ؟ حقاً ، إن المجتمع قائم على عبادة البطولة .

وهذا الشعور عند « كارلايل » هو أعمق ناحية في الإنسان ، وهو موجود حتى في عصور الهدم والتدمير وعهود التنقص والازدراء ، لأنه كامن في نفس الإنسان لاصق بطبيعته ، وفي ذلك يقول « كارلايل » في كتابه عن الأبطال « يبدو لي أنني أرى في عبادة الأبطال ، التي لا يستطيع أن ينال منها شيء ، الصخرة الراسخة التي تحول دون سقوط الدول في مهاوى الهلاك وأعماق الخراب .

ويمكن أن نتبين في تضاعيف هذا الحديث شدة تأثير « كارلايل » بالتفكير الألماني ، فنظرية « كارلايل » في الأبطال من وجوه كثيرة تطبيق عملي للفكرة التي غلبت على التفكير الألماني في أوائل القرن التاسع عشر ، وهي أن كل أمة من الأمم ، وكل عصر من العصور ، وكل حضارة من الحضارات لها فكرتها الخاصة الغالبة المستعلية ، وهي تستمد سماتها من هذه الفكرة العامة ، ويمكن أن نستخلص الفلسفة والدين والفنون وجميع عناصر الفكر والعمل من هذه الفكرة الرئيسية العامة التي

ينبع منها كل شيء كما ينتهي إليها كل شيء ، وما أسماه « هيجل » في كتابه عن فلسفة التاريخ « الفكرة » جعله « كارلايل » بحكم مزاجه البريطاني العملي « العاطفة البطولية » ولكي يتجنب الغموض نظر إلى هذه العاطفة البطولية ممثلة في بطل معين ، وقد كان « كارلايل » كاتباً فناناً مطبوعاً ولذا لم يجد صعوبة في تحويل الفكرة المجردة إلى عاطفة ، ثم منح هذه العاطفة جسداً وروحاً وذلك بإظهارها ممثلة في أبطاله ، فهو بطبيعته لا يرتاح إلى الصور المجردة ولا يأنس بالمفاهيم الفكرية ، وإنما يروقه ويرضى نزعة الفنية وشعوره أن يراها مجسمة في الأشخاص الأعياء والأبطال العظماء .

فالرجل العظيم أو البطل في رأي « كارلايل » يمثل الحضارة التي اشتملت عليه والعصر الذي احتواه ، وقد كشف فكرة العصر وأعلنها ووقف إلى جانبها مناضلاً عنها رافعاً لواءها ، ولم يجد عصره متحولاً عن أن يتبعه وينقاد له ، فالوقوف على هذه الفكرة ممثلة في العاطفة البطولية وموقف البطل يجعلنا نفهم العصر بأصباره ، وقد استطاع « كارلايل » بانتهاجه هذا المنهج أن يعرف تاريخ العصور عن طريق دراسته لحياة الأبطال الذين برزوا فيها ، وأصبحوا علماء عليها وعنواناً لها ، وكأنه بهذه الطريقة قد أعاد كشف ما سبق أن كشفه أساتذته الألمان ، فقد شعر مثلهم بأن كل حضارة مهما اتسعت رقعتها وطال عهدها تكون كلا متماسك الأجزاء متجاوب الأنحاء ، فنظريته في البطولة جمعت الأجزاء المتناثرة في الحضارات والعصور التي حاول « هيجل » أن يربطها بعضها ببعض بطريق القوانين التي كشفها ، وأمكن « كارلايل » بذلك أن يفهم العلاقة العميقة البعيدة بين الأشياء ، تلك العلاقة التي تربط الرجل العظيم بعصره ، والشعور البطلي هذا إذن هو باعث المشاعر الأخرى كالطاعة والولاء والحب والإعجاب ، وهو محرك الثورات و باعث الانقلابات ، ومجدد الحياة الإنسانية ، ومنقذها من الضلال والتخلف

الثورة الفرنسية وكتابه عن تاريخ « كرومويل » وسائر كتاباته التاريخية بوجه خاص .

وهذا الأسلوب في فهم حوادث التاريخ عن طريق إدراك العواطف المسيطرة في نفوس الأبطال الذى كشفه لنا « كارلايل » في محاضراته عن الأبطال هو الذى يروقنا ويمتعتنا وينير بصائرنا في قراءة روايات أمثال « دستوفسكى » و « تولستوى » و « بلزاك » و « ستندال » و « زفايج » وأضرابهم من الروائيين الكبار الذين يكشفون لنا أسرار الحياة وأنسجة المجتمع عن طريق تعمقهم في فهم نفسية أبطال رواياتهم ، واستطاعتهم أن يصفوا لنا خلجات نفوسهم ونبضات قلوبهم ، والأزمات النفسية التى مروا بها ، وتعرضوا لحنها وآلامها .

ولكن من هو البطل ؟ وهل هناك محك نستطيع أن نميز به البطل الصادق البطولة من البطل المزيف ، ومعرفة الذهب الخالص من المعادن الحسيسة المدخولة ؟ فتاريخ الأديان مثلاً حافل بالأنبياء الصادقين المرسلين وأدعياء النبوة الكذابين ، وفي الحياة السياسية كذلك الزعماء الأبطال والدجالون الديماجوجيون ، وهناك الأبطال الذين يمثلون الفكرة الإلهية ، والمموهون ذوو البطولة الكاذبة المصطنعة ، وهذه سمة لازمة من سمات الحياة الإنسانية لا يمكن أن تزول ، فالتحوت والأوشاب لا بد أن يكون لهم البطل الخاص بهم كذلك ، ويقول « كارلايل » محذراً ومنذراً « اعرفوا الرجال الذين تخطون بهم الثقة ، ولكن من يواعث الأسف في تلك الأيام أن ذلك لا يزال بعيداً عنا ، فاخلص وحده هو الذى يستطيع أن يعرف المخلص ، وليس المطلوب بطلاً فحسب وإنما المطلوب عالم مناسب له لائق به ، عالم غير عالم العبيد والخدم ، فعالم العبيد والخدم إنما يسيطر عليه ويحكمه بطل زائف فهو ملائم له ومتجاوب معه ، وعلمنا أن نتعلم كيف نعرف البطل والحاكم الكفء

والحمود ، وعلى المؤرخ الحق أن ينظر إلى الحضارات والثورات وشتى مظاهر الحياة الإنسانية في ضوء هذا الشعور البطلى لأنه باعث كل حركة ، والذين يكتفون في التاريخ بالنظر إلى النظم والأوضاع والقوالب والصيغ يغيب عنهم الجوهر واللباب ، فليس الإنسان مخلوقاً هامداً جامداً ناضب الحيوية ، مفلول العزيمة ، تصوغه القوانين والنظم ، ولا هو كائناتاً عديم الحياة فاقد الحس تعبر عنه الصيغ وتتضمنه القوالب ، والتاريخ الحق ملحمة بطولة الإنسان وقصة محاولاته العظيمة وأعماله الجليلة المدونة في صفحات التاريخ .

وهذه الفكرة التى أصر عليها « كارلايل » واقرنت باسمه وكانت سبباً في الكثير من النقد الذى وجه إليه هى حقاً فكرة لامعة مضيئة ، لأن معظم الأعمال الباهرة العظيمة التى تمت في هذه الدنيا كان باعثها العواطف العظيمة الفائرة الجياشة ، وقد كان باعث الرئيسى الغلاب في كل ثورة وانقلاب عاطفة مجتاحة تتجاوز المألوف وتكتسح في طريقها الحواجز والأسداد ، وتغير الأوضاع ، وتحطم الأصنام لتقيم نظاماً جديداً ، وتبدأ خطة مستحدثة ، ومن هنا تبدأ الأمور وتجري المقادير فى أعنتها . ومعنى الثورة وسر التغيير والتجديد هو ميلاد عاطفة عظيمة وشعور قوى مستغرق ، أما كيف تستغل هذه العاطفة عزائم الرجال وأخيلة الشعراء والفنانين ومفاهيم المفكرين والفلاسفة ، وكيف تغذى وتعيش وتسيطر فهو ما تتكفل ببيانه جميع الحركات الماثورة في التاريخ منذ أقدم عصوره حتى عصرنا الراهن ، وما أحسبنا نستطيع أن نفهم قوة عقيدة من العقائد أو مبادئ من المبادئ إن لم نقدّر مدى قوة العاطفة التى استمد منها وعاش بها ونما في أحضانها واستظل برعايتها ويؤكد لنا هذا العلاقة الأكيدة بين علم النفس والدراسات النفسية والبحث التاريخى . وهذا هو النوع من الكتابة التاريخية الذى بلغ مستوى رفيعاً في مؤلفات « كارلايل » التاريخية مثل كتابه عن تاريخ

والرئيس بحق حيناً نراه. وإلا ظللنا إلى الأبد يحكمنا العارون من البطولة» .

والملاحظ أن «كارلايل» لا يقدم لنا جواباً عن سؤالنا يشفي الغلة ، رغم بلاغته وعلو أسلوبه ، ولكننا نكلف «كارلايل» ما لا يطيق إذا طلبنا منه أن يقدم لنا تعريفاً جامعاً مانعاً للبطل ، فثل هذا التعريف يعتمد على القضايا المنطقية ، و «كارلايل» ليس من المنطقة وهو لا يخفى عنا استخفافه بالمنطق ، وعنده أن المنطق لن يستطيع أن يصل إلى سر الحقيقة ، والحاجة والمجادلة ، وطرائق المنطق ليست هي السبيل الصالح للفهم والإدراك وإنما سبيل ذلك الحدس ، والمنطق في ذاته حسن ولا بأس به ولكنه ليس خير الطرق ، ولن ننجح في فهم الحياة بالمنطق ، دع عنك أسمى صورها وهي الحياة البطولية ، وهو يقول في كتابه عن الأبطال «المعرفة أو الوصول إلى الحق مسألة روحية لا يستطيع أقدر المناطق سوى أن يثرثر على سطحها ، ومحاولة تكوين نظرية في مثل هذه الأمور محاولة غير مجدية ، فهي أمور تتأني على الرسم والتصوير وتمتنع على القضايا والنظريات ، ويجب على المنطق أن يعرف أنه لا يستطيع التحدث عنها ، وأنه لا حيلة له لتلقاها» .

ولكن إذا كانت المعرفة بطبيعتها وجوهرها يتعذر صلبها في القوالب المنطقية ، فكيف إذن نعب عنها وننقلها من نفسنا إلى نفوس الأغيار في رموز الحديث القاصرة ، وكيف اجترأ «كارلايل» نفسه على أن يقدم على إلقاء محاضراته في هذا الصدد ويقدمها للطبع بعد ذلك ؟ وكيف عالج هذا المشكل وتغلب على تلك الصعوبة ؟ إنه لم يستطع سوى أن يقدم أمثلة حية باهرة ، لا براهين دامغة على صحة نظريته ، وما من شك في أن الأمثلة التي عرضها كانت أمثلة عامرة بالحياة بالغة التأثير في النفوس ، والتاريخ في رأى «كارلايل» ليس كتاب شواهد ونصوص جافة مملة وإنما هو متحف حافل بروائع الصور ، ولن نستطيع فهمه بطريق التصورات

المجردة ، وإنما نستطيع أن نتبين حقيقته عن طريق الصبر المعروضة والأمثلة المضروبة ، وهو لم يجد نفسه في حاجة إلى أن يجيب عن سؤالنا عن من هو الرجل العظيم والبطل الصادق البطولة ، لأنه قد ذكر لنا من هم هؤلاء الأبطال ووافانا بملامحهم وسماتهم ، وقائمته حافلة مملوءة بأسماء الرجال الذين صنعوا التاريخ وقادوا الرجال ووطدوا المآثر والمفاخر .

والأبطال الذين اختارهم «كارلايل» في محاضراته من بين العدد الكبير من الأبطال الذين يعجب بهم أحد عشر بطلاً ، والظاهر أنه رأى الاقتصار على الحديث عنهم ليكون ذلك أدعى إلى التركيز وأبلغ وقعاً في النفوس ، فالبطل في صورة إله هو «أودين» إله «الاسكيندنافيين» والبطل في صورة نبي هو نبيينا الكريم «محمد بن عبدالله» واختار للبطل في صورة شاعر الشعراء العظمين «دانتى» و «شيكسبير» ، ومثل للبطل في صورة قسيس ومصلح ديني «لوثر» و «نوكس» وضرب مثلاً للبطل في صورة كاتب «جونسون» و «روسو» و «بيرنز» وقدم لنا «كرومويل» و «نابليون» مثلين للبطل في صورة ملك .

ويؤكد لنا «كارلايل» أن علينا أن نقرب من هؤلاء الأبطال بنفوس حشوها الرهبة والإجلال ، لأنهم يضطلعون بالواجب الأسمى ، ولا يخضعون لمعايير النقد العادية ، وقد لا تخلون من عيوب ونقائص - وإن كان «كارلايل» يحاول أن يهون من شأن تلك العيوب والنقائص أو ينكرها جملة - ولكن مع ذلك علينا أن نحبه ونحترمهم ، ونحى الرقاب أمام عظمتهم .

وفي محاضراته عن البطل في صورة نبي يقول عن نبي الاسلام^(١) «ويزعم المتعصبون من النصارى ،

(١) نقلت هذه الفقرات من ترجمة الكاتب الكبير المرحوم الأستاذ «محمد السباعي» لكتاب الأبطال بعد أن قمت بمراجعتها على الأصل .

والملاحدون أن محمداً لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان ، كلا وأيم الله ، لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ، ابن القفار والقلوات ، المتوقد المقلتين ، العظيم النفس ، المملوء رحمة وخيراً ، أفكار غير الطمع الدنيوى ونيات خلاف طلب السلطة والجاه ، وكيف وتلك نفس صامته كبيرة ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جاديين ، فبينما ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ، ويسيرون طبق الاعتبارات الباطلة ، ترى « محمداً » لم يرض أن يلتفع بمألوف الأكاذيب ، ويتوشع بمتبع الأباطيل ، لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات ، لقد كان سر الوجود يسطع لعينه كما قلت بأهواله ومخاوفه وروائقه ومباهره ، لم يكن هنالك من الأباطيل ما يججب ذلك عنه ، فكأنه لسان حال ذلك السر الهائل يتناجيه « هأنذا » فتل هذا الإخلاص لا يخلو من معنى إلهي مقدس ، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة ، فإذا تكلم فكل الآذان برغمها صاغية ، وكل القلوب واعية ، وكل كلام ما عدا ذلك هباء ، وكل قول جفاء ، وما زال منذ الأعوام الطوال — منذ أيام رحيله وأسفاره — يحول بخاطره آلاف من الأفكار : ماذا أنا ؟ وما ذلك الشيء العديم النهاية الذى أعيش فيه والذى يسميه الناس كوناً ؟ وما هى الحياة ؟ وما هو الموت ؟ وماذا أعتقد ؟ وماذا أفعل ؟ فهل أجابته عن ذلك صخور جبل « حراء » أو شمرايخ طود « الطور » أو تلك القفار والقلوات ؟ كلا ولا قبة الفلك الدوار ، واختلاف الليل والنهار . ولا النجوم الزاهرة ، والأنواء الماطرة ، لم يجبه هذا ولا ذاك . وما الجواب عن ذلك إلا روح الرجل وإلا ما أودع الله فيه من سره ! » .

وفي محاضراته عن الشاعرين « دانتى » و « شيكسبير » نظرات نافذة فى شخصية الشاعرين وتقدير عال لهما

وإشادة بفضلهما ، وقد اتهم « كارلايل » بإشادته « بالأمبريالية » وتحبيذه لحكم القوة ، وقد أسرف بعض الباحثين فوصفوه بأنه « أبو الأمبريالية البريطانية » ولكن هناك فارق كبير بين أفكار « كارلايل » عن « الأمبريالية » والقومية وأفكار غيره من غلاة « الأمبرياليين » وأصحاب فكرة القومية الضيقة المعتدية ، فقومية « كارلايل » لها لونها الخاص ، وقد كان « كارلايل » يرى أن عظمة الأمة الحقيقية فى عمق حياتها الأخلاقية وأن قوتها ليست فى تكاثر ثروتها واتساع رقعتها وإنما فى المستويات الفكرية التى تبلغها ، والإنتاج الأدبى والفنى الذى تقدمه للعالم وتسهم به فى إغناء الحضارة الإنسانية لا فى امتداد حدود سلطانها ، وكثرة جيوشها وأساطيلها ، ويتجلى ذلك خلال تقديره للشاعر البريطانى « شيكسبير » فهو يقول فى ختام محاضراته عنه ^(١) « هذا هو فلاح قرية « سترادفورد » الذى ارتفع إلى درجة مدير تمثيل فكفى بذلك ذل السؤال ، والذى رفق « اللورد سودا ميتون » بعين رحمته ، والذى كان « السير توماس مور » حفظه الله يريد لإرساله إلى السجن ! إننا لم نعهده إلهاً « كأودين » إذ هو عائش وسطنا ، ولكنه رغباً من ضعف إيمان الأزمان الحديثة بالأبطال فأى إجلال وإكبار لم يصبه « شيكسبير » هذا من أبناء اللسان الإنجليزى ؟ أى رجل بل أى مليون رجل من رجالنا لا نجعلهم فداء « شيكسبير » الذى هو أكبر مفاخرنا وأعظم مآثرنا — مفخرة نزهى بها على الأجانب وحلية يزدان بها صدر « بريطانيا » انظروا ماذا يكون الجواب إذا خيرنا بين أن نترك « شيكسبير » أو بلاد « الهند » ، أن نكون لم نمتلك قط « شيكسبير » أو لم نمتلك قط « امبراطورية الهند » ، أنا أعلم أن رجال السياسة والحكومة يفضلون « الهند » ، ولكننا نحن لنا الحق أيضاً فى أن نختار ما نراه

(١) هذه الفقرات من ترجمة الأستاذ « محمد السباعى » .

أفضل فنقول : سواء حكمنا « الهند » أو لم نحكمها فلا غنى لنا عن « شيكسبير » ! ستهذب « الهند » يوماً ما ولكن « شيكسبير » لا يذهب ، بل إن لـ « شيكسبير » فضلاً عن مرتبة المجد والفخار وتهذيب النفوس والأخلاق فائدة مادية عملية ، وهى أنه الجامعة الكبرى والعروة الوثقى لشتى طوائف البريطان فى أنحاء المعمورة ، وسيجىء يوم تظل جزيرتنا هذه لا تعى من أبناء « بريطانيا » إلا الجزء الأخس ، وسائرهم مبعثر فى نواحي الكرة الأرضية مبدد فى جوانبها ، وإذا كان ذلك فما الذى يقرب بين هذه النفوس المتدبرة ، ويؤلف بين هاتيك القلوب المتنافرة فيخضر بينهم الثرى ، ويتجلى ويشرق الجو بينهم ويتألاً ، ويصبحون بفضل أمة واحدة ؟ ما ذاك الذى يكون قطباً تدور حوله مصالحهم وأوطارهم ، وكعبة تشرئب نحوها أعناقهم وأبصارهم ؟ وبماذا يقوم عمود صلاحهم فى مستقره ونصابه ويستحكم رواق عزهم بأوتاره وأسبابه ؟ بماذا يكون ذلك ؟ أبالحكومة ولائحتها ؟ أم بالوزارة وأقترحاتها ؟ أم بالسياسة واصطلاحاتها ؟ كلا ثم كلا ! بل بـ « شيكسبير » هذا فهو الملك الأكبر الحاكم على جميع طوائف الإنجليز فى سائر الأنحاء والأرجاء ، الذى بفضل نصبه و « أمريكا » شعباً واحداً على رغم ما أتهه الحكومة من التفريق بينهم وبينهم ، وما هو فى الحقيقة إلا انفصال ظاهرى سطحى . و « شيكسبير » الملك الذى يضمنا جميعاً تحت صولجان واحد وراية واحدة ، الذى ليس فى قدرة الحكومة ولا البرلمان كلا ولا ألف حكومة وألف برلمان أن تخلعه ؟ ولن يبرح الرجل الإنجليزى يقول لصاحبه وجاره ، والمرأة الإنجليزية تقول لربها وجارتها فى « الهند » وفى « كندا » وفى « جاميكا » وفى « استراليا » نعم « شيكسبير » هذا رجلنا ، ونحن أنتجنه وإلينا ينسب وبفؤاده نشعر وبذهنه نفكر ، ونحن وإياه من طينة بعينها ومن دوحة واحدة ، ولأهل

بقيت مسألة فى هذه المحاضرة طالما وقف عندها المفكرون ، واعترض عليها المعترضون . وإنى أشايهم فى مخالفتهم بصدها « كارلايل » ، وذلك حيث يقول فى مطلع هذه المحاضرة^(١) : « بطل ، نبى ، شاعر ، إلى غير ذلك من شتى الأسماء . نعطيها للرجل فى شتى الأزمان والأمكنة ، وذلك حسب ما نرى بينهم من الفروق وحسب ما برعوا فيه من فنون الفضل وأبواب العلم ! وعلى هذه القاعدة يمكننا أن نعطي كثيراً من الأسماء

(١) ترجمة الأستاذ « محمد السباعي » .

والعلل أكثر وأكبر ، وما عظماء الرجال في ذلك الأمر إلا كأصاغرهم ، فإنك لتتناول الطفل الممكن نصيره أي صانع فتعلمه حتى يصبح حداداً أو نجاراً أو بناء ، ومتى أصبح هذا أو ذاك بقي كذلك طول عمره ، وإذا كنا لا نزال كما قال «إديسون» نجد الرجل الأعرج الموهون يعتمد على عصاه ، وهو مع ذلك حال ينوء تحت ثقله الفادح ، وآخر ضخّم الجثة ، شديد القوى ، عَـبِلُ الشَّوَى عَادِيّ الألواح ، كأنه الهيكل المبنى ، وهو مع ذلك خياط لا يحمل إلا خيطاً وإبرة يخف محمولها على الخلة - علمنا أن الأمر غير متوقف على الاستعداد الطبيعي ، وكذلك الرجل العظيم ماذا يصير وبم يحترف ؟ أيصير غازياً أم سلطاناً أم فيلسوفاً أم شاعراً ؟ إنها لمناظرة عويصة معضلة بينه وبين العالم ! وما عليه إلا أن يقرأ العالم وقوانينه ، والعالم وقوانينه صحيفة منشورة أمامه ، وما لدى العالم مسألة أهم وأخطر مما يراه ويقضى به في شأن الرجل العظيم .

والكثرة الغالبة توافق «كارلايل» على قوله إن صفوة الأدباء في جميع الأقطار الأوروبية وأعظم الفحول من النقاد والكتاب والشعراء قد أوشكوا أن يجمعوا على أن «شيكسبير» سيد شعراء العالم على الإطلاق ، ولكن هذا كله مع ذلك لا يدل على أنه أوتي براعة المثال أو قدرة الرسام ، أو موهبة الموسيقار أو استعداد العالم المحرب ، أو مواهب الفيلسوف النظري ، أو نفاذ بصيرة القائد الحربي من طراز «هانيبال» و«يوليوس قيصر» و«نابليون» ، فكل هذه الجوانب المتعددة للعبقريّة الإنسانية ، لا تتطلب البصيرة النافذة والذهن القوى وحدهما ، وإنما يتطلب كل منها الموهبة الخاصة به التي تسمو به إلى ذروة التفوق والامتنياز ، بل ربما لم يكن في وسع الرجل العظيم بدافع من عظمتها نفسها - على خلاف ما ذهب إليه «كارلايل» - أن يكون كل شيء وأن يبرز في

غير ذلك ، وإنى لأوقن بأنى لا أحسب أن هناك رجلاً عظيماً لا يمكنه أن يكون عظيماً في كل فن ، فالشاعر الذي لا يستطيع إلا أن يجلس إلى يراعه وقرطاسه فينظم قصيدة ، مستحيل عليه أن ينظم قصيدة بارعة ، ولا أحسبه يجيد صفة الفارس الأروع إلا إذا كان هو نفسه فارساً أروع ، ولا أحسب الشاعر الكبير إلا أنه يجمع في نفسه بين السياسي والمفكر والمشرع والفيلسوف وأنه قد كان يمكنه أن يكون - بل هو بالفعل - كل هذه . ثم لا أفهم لماذا كان يستحيل على رجل مثل «ميرابو» صاحب القلب الكبير المتوهج المتأجج ناراً المقعم دموماً أن يكون شاعراً ينظم القصيد والمبكيات التمثيلية والمقطعات ، فيقرع بها القلوب والأكباد ، لو قد ساقته الأحوال والأسباب إلى ذلك ، والأمر الأوّل الجوهري هو أن يكون الرجل عظيماً . وإن فيما قاله «نابليون» لكلمات لا تقل قيمة عن أكبر وقائعه ، وقد أذكر قواد «لويز الرابع عشر» فيخيل إلى أنهم كذلك شعراء ، وإن في كلمات القائد «تورين» ما يماثل أقوال «صامويل جونسون» حكمة وبلاغة ، فالقلب الكبير والعين البصيرة هما رأس الفضائل ، وما كان لامرئ قط أن يجل ويعظم بغيرهما ، أولاً تذكر أن الشاعرين «بترارك» و«بوكاشيو» كانا يقومان بأعمال سياسية فيحسنان القيام بذلك ؟ أم لا تحسبون أن الشاعر «بيرنز» لو قد جعله الله مكان «ميرابو» لآثى بما لم يستطعه ، ولا نعلم أي عمل من الأعمال كان «شيكسبير» لا يؤديه على أكمل حال لو قد أسند إليه .

ويشعر «كارلايل» هنا بأنه قد انساق مع تيار بلاغته وجاء بما يغاير المؤلف فيستدرك قائلاً^(١) «ولست أنكر أن لكل امرئ طبيعة خاصة واستعداداً فطرياً ، وأن هنالك فروقاً في الغرائز ، ولكن فروق الأحوال

(١) ترجمة الأستاذ «محمد السباعي» لكتاب الأبطال .

« كارلايل » ، ولكن علينا أن نقدر الظروف التي أعدت فيها هذه المحاضرات ، فأسلوب « كارلايل » فيها أسلوب خطابي على النغمة يعتمد على التأثير البلاغي والإيحاء الفني ، وقد استغل بطبيعة الحال مواهبه الخطابية في كتابة هذه المحاضرات التي أعدها للإلقاء أكثر من استغلاله لها في مؤلفاته الأخرى التي أعدت للقراءة والدراسة ، لا للإلقاء والخطابة .

وبعد أن تحدث « كارلايل » في المحاضرات الأربع الأولى عن صور البطولة البعيدة عن العصور الحديثة إلى حد ما ، والتي تختلف ملابسها عن ملابس العصر الحديث تناول في المحاضرة الخامسة البطل في صورة الكاتب حامل القلم ، وفي مطلع المحاضرة استرعى نظرنا إلى طرافة هذا النوع من أنواع البطولة الخاص بالعصور الحديثة ، وأبدى ملحوظات قيمة خاصة بوظيفة الكاتب ورسالته ، وقد استهل المحاضرة بقوله (١) « الآلهة والأنبياء والشعراء والقسوس هي صور بطولية تتعلق بالأزمان الماضية ، وتظهر في العصور الحالية ، وقد أصبح ظهور بعضها في العالم ضرباً من المحال ، فأما البطل الكاتب الذي سنتكلم عنه فإنه من نتائج هذه الأعصر الحديثة ، وسيدوم ما دامت تلك الصناعة العجيبة - الكتابة - وهاتيك الحرفة الحديثة - الطباعة - وهذا الصنف من الأبطال يعد إحدى نواذر الدهر ، أقول إنه صنف جديد من البطولة لم يكديتم له في الوجود مائة عام ، ولم يك قبلها رجل كبير ليعيش ويرتزق بهذا الأسلوب العجيب ، ينثج وحي ضميره في صفحات الكتب ، ويطيها في أنحاء الأرض بأجنحة الأوراق فينال معاشاً ومنزلة بما يسخو له به أهل هذا العالم جزاء عمله ذاك ، وما زالت السلع والبضائع تباع ولن تزال ، ولكن سلعة الحكمة والفلسفة ووحى ضمائر العظماء لم تعرض قبل ذلك في الأسواق

كل النواحي ، فهو قد بلغ قمة العظمة وحقق رسالته ، لأنه كان معداً بطبيعته لأداء عمل عظيم خاص ملائم للمكاتب ، وحينما تلوح له الفرصة وتواتيه الظروف للاضطلاع بهذا العمل يحبس عليه جهده ، ويهب له حياته ، ولم يكن أحد يعرف قيمة مثل هذا التركيز في توجيه الجهود وحصر القوى مثل « كارلايل » نفسه ، وقد ضرب لنا بحياته مثلاً بليغاً لتوضيح ذلك ، فقد أخلص لطبيعته ووهب حياته جميعها للتأليف وأداء رسالته الأدبية ، وضحي في سبيل ذلك بكل شيء ، بل بالشهرة الأدبية نفسها في بعض المواقف وصداقة الأصدقاء وإعجاب المعجبين والأنصار .

ولكن « كارلايل » كان يظن أن الرجل الراجح العقل الرضي الأخلاق يستطيع بإخلاصه وشدة شعوره بالواجب أن يتقن أى عمل يعهد إليه في القيام به ، والعقل الراجح عند « كارلايل » كل شامل لا يجزأ وهو معيار الإنسان ، ولهذا قال عن « شيكسبير » : « العقل الكبير هو أول مواهب الشاعر ، فإذا أوتى ذلك فقد صار شاعراً بالقول ، فإن لم يواته ذلك فشاعراً بالفعل ، وكونه يكتب أو لا يكتب ، ثم يكتب شعراً أو نثراً هذا أمر ثانوى يتوقف على الصدف - ربما على أدنى الصدف » .

ويبدو لي أن « كارلايل » في فورة حماسه لأبطاله نسي أو قلل من شأن الفروق الأصيلة بين المواهب والاستعدادات والقابليات ، وأن كل امرئ ميسر لما خلق له ، وما أحسب رجلاً مثل « الدكتور جونسون » العالم اللغوى المتفهب صاحب الأخبار العجيبة والنواذر المستملحة ، كان يستطيع أن يجارى « شيكسبير » في شعره أو مسرحياته . ولا أن رجلاً مثل « كرومويل » ، كان يستطيع أن يخرج لنا طرفاً فنية تماثل المسلاة الإلهية ، وقد يدهشنا صدور هذا الرأى من مؤرخ راسخ القدم واسع الاطلاع على سير الرجال مثل

(١) نقلا عن ترجمة الأستاذ « محمد السباعي » لكتاب الأبطال .

الحق ، وحياته قطعة من فؤاد الطبيعة الأبدى ، وكذلك حياة كل امرئ ، ولكن الضعاف الأكثرين لا يعلمون عن أنفسهم ذلك ، ولا يخلصون لتلك الحقيقة ، والأقوياء الأقولون أقوياء أبطال مستمرون ، لأن هذه الحقيقة لا تبرح نصب أعينهم ، والكاتب البطل مرسل إلى العالم ليفهمهم ذلك حسبما يستطيع ، وهى عين الوظيفة التى كان القدماء يسمون صاحبها إلهاً أو نبياً أو قسيساً ، وهى التى ما أرسل بطل إلى العالم إلا لى يؤديها .

وقد تأثر « كارلايل » فى نظريته عن البطل ودوره فى التاريخ بالتفكير الألماني . وخاصة بآراء « فشته » و « هيجل » و « هردر » ، ولكن ينبغى حينما نذكر ذلك أن نذكر إلى جانبه أن تقدير البطولة كان عنصراً أصيلاً من عناصر شخصية « كارلايل » ، وأنه كان يسير فى اتجاه تقدير الأبطال قبل أن يتعلم الألمانية بزمان ويتشبع بآراء المفكرين الألمان ، فهو حينما اطلع على آراء الفلاسفة الألمان كان قد كون وجهة نظره الخاصة فى هذا الموضوع ، وقد وجد فى مذاهب المفكرين الألمان ما ساعده على تأكيد وجهة نظره والتوسع فى تطبيقها ، وقد كان « كارلايل » أعمق أصالة من أن يتأثر بنظرية لا يجد صدق لها فى نفسه ، وبذورا كامنة فى تفكيره .

وقد استهدفت نظرية « كارلايل » فى تفسير التاريخ عن طريق تأثير الأبطال فى الحركة التاريخية لنقد شديد ، وبخاصة من الكتاب الديمقراطيين والاشتراكيين ، وربما كان أعمق نقد وجهه لنظرية « كارلايل » هو الفصل الذى كتبه الزعيم الوطنى الإيطالى الكبير « متزىنى » وعنوانه « عبقرية كتابات كارلايل واتجاهها » ويرى « متزىنى » فى هذا الفصل القيم أن الظلال الضخمة التى ألقاها الأبطال على عصورهم حجب عن عيني « كارلايل » رؤية الفكر القومى الذى كان أمثال هؤلاء الرجال ممثلين له ومعبرين

هذا العرض المبين ، ويا له من منظر عجيب — منظر الكاتب فى أسأله البالية وحجرته الخاوية يسوس من وراء قبره بعد مماته من أمم العالم وأجيال الأرض من ضنوا عليه أثناء حياته بالقوت الضرورى ، أجل عجب وربكم وأى عجب ! ولم أر فى ضروب البطولة وصنوف العظمة ما هو أدهش من ذلك ، وما برح البطل من قديم الأزل يلبس للناس أزياء شتى وأشكالاً مستغربة ، وما برحت الدنيا تحار فى كنهه لغربة منظره ، فلا تدري ماذا تصنع به ، ونحن ننكر من القدماء أن يحملهم فرط الإعجاب بالبطل على أن يعدوه إلهاً أو نبياً ، وأولى بالإنكار أن يرسل الله لخلقه بطلاً مثل « جونسون » أو « روسو » أو « برنيز » فتقتحمهم عيون الناس ولا يروهم إلا عجزة ومكاسيل لا فضل لهم إلا بضعة كلمات أكثر ما فيها أنها ملهاة القوم ومدفوعة لآناء السأم والملل ينبذ إليها فى ثمنها الدراهم مقدار مسكة الرمق ، أليس هذا أولى بالإنكار والنفمة ؟ ومنذ كان الفكر هو سائس المادة وجب علينا أن نجعل البطل الكاتب إمامنا وقائدنا ، وألا نقدم عليه مخلوقاً مهما عظم ، فهو روح العالم فى أى صورة برز وأى زى لبس ، وما يقوله كان حتماً على العالم تعلمه واعتقاده والسير على موجهه ، وهىئة استقبال الدنيا إياه ، ومعاملتها له عنوان رفعتها أو ضعتها — دليل سموها أو انحطاطها — مقياس قيمتها وفضلها ، ونظرتنا فى سيرته نظرة فى لباب حياة تلك العصور التى هو ثمرتها والتى نعيش نحن فيها .

ولكن ليس الكتاب جميعهم من معدن واحد ففهم الصادق والكاذب والحسن والمسيء ، ويقول « كارلايل » فى ذلك « الكاتب صنفان جيد وردى شأن كل شئ فى هذا الوجود ، فإذا دل بلفظه على الجودة فوظيفة الكاتب بيننا كأشرف ما يكون وأعلى ، فهو ينفث لنا ما أودع الله جوفه من وحيه ، وهذا أكثر ما يستطيع امرؤ أن يفعله ، وهو قبضة من طينة

عنه ومفسرين لغوامضه ، والشعوب والأمم والأقوام هي مستودع هذا الفكر ومستقره ، ويعارض « متزني » رأى « كارلايل » فى أن تاريخ العالم الحق هو تراجم حياة العظماء قائلا : « لئننى باسم روح العصر الديمقراطية أعارض هذه الآراء ، فليس التاريخ تراجم حياة العظماء ، وإنما تاريخ العالم هو تاريخ ديانة الإنسانية التقدمية وتنقل رموز هذه الديانة ، وعظماء الأرض هم المعالم فى طريق الإنسانية ، وهم كهنة ديانتها » والعبرى البطل فى رأى « متزني » يستمد نصف وحيه من السماء ، والنصف الآخر من الناس ، ولذا لا نستطيع أن نقد العبرى تقديرا صحيحا إلا إذا درسنا بيئته .

وقد ذهب « برتراند رسل » فى الفصل الذى عقده

عن « دور الفردية » فى كتابه عن « السلطة والفرد إلى ما يقترب من جوهر فكرة « كارلايل » فى تقدير أثر الفرد فى التاريخ على ما بينهما من اختلاف كبير فى المزاج والتفكير ، وبرغم النقد الشديد الذى وجه إلى نظرية « كارلايل » فى موقف البطل وتأثيره فى التاريخ واختلاف الآراء حولها فإنها لا تزال من النظريات المرعية الجانب القابلة للمناقشة ، وموضوع البطل فى التاريخ أوسع حدودا وأكثر تعقيدا من أن يقال فيه الكلمة الفاصلة والرأى النهائى ؟ ومحاضرات « كارلايل » عن الأبطال برغم أن « كارلايل » نفسه لم يكن راضيا عنها ولا يراها من مآثور مؤلفاته ومستجاد بحوثه إلا أنها مع ذلك كله لا تزال من الآثار الفنية الممتازة والأبنية الفكرية الشائقة .

